الفصل الثالث

الـزواج من مفهـوم تطـوري

إن حكماء وعلماء العالم لا يرون بديلاً عن الزواج كمؤسسة عائلية تجمع الرجل والمرأة ليعيشا بهناء واستقرار.

"قد يفكر البعض بأن هذه المؤسسة تحتاج إلى تطوير وملائمة لظروف الإنسان الحديث. كما نرى عند عدد من الأميركيين الذين اختاروا نمطاً من الزواج أطلق عليه "زواج السفر" حيث يتزوج الرجل والمرأة ولكنهما لا يجتمعان في بيت واحد وإنما يلتقيان باستمرار مع تخلل لقائهما فترات من الفراق بسبب الانشغال في العمل أو اختلاف مكان السكن، وهو نموذج مشابه لزواج "المسيار" الذي شاع أخيراً في بعض دول الخليج، أو "زواج المتعة" وإن كان فيه خلاف بين المذاهب الإسلامية. وعلى أي حال فإن الأهداف الإنسانية والحاجات الاجتماعية متأصلة في الإنسان وتبقى ثابتة ولكن وسائل التعبير عنها قد تختلف من زمان لآخر ومن مكان لمكان."[1]

1- المرأة، مرجع سابق، ص٧٤.

الأسرة تعكس صورة التغير الاجتماعي، والتغير الاجتماعي سمة عامة من سمات المجتمعات البشرية، منذ بدايات التاريخ "الأشياء في تغير متصل... أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين، فإن مياهاً جديدة تجري من حولك أبداً" (هرقليطس)

هذه الحكمة تنطبق على واقع الأسرة التي لحقها التغيير بسرعة خاصة في المجتمعات المدنية الحديثة حيث يحصل التغيير بشكل غير منظم مع دخول الكثير من العادات والثقافات الجديدة على المجتمع والتي يتم استغلالها بالشكل غير الصحيح أحياناً.

ولكن قوانين الزواج ما زالت في معظمها تخضع للأديان، والتقاليد التي يعتبرها البعض نظاماً عتيقاً لا يتماشى مع الحرية والتطور.

"برتراند راسل" مثلاً: حاول في كتابه عن الزواج والأخلاقيات أن يدرس الأسرة من منظور تطوري، وأشار إلى أن هناك احتمالات في أن تصبح الأسرة نظاماً عتيقاً، أو أن تصبح نظاماً مضى عليه الزمن، بعد أن تضاءل تأثير الديانة المسيحية في الحياة اليومية بسرعة هائلة في كل أوروبا حيث قال: "لم تتدن نسبة المؤمنين الاسميين فقط بل انخفضت أيضاً في من تبقى على إيمانه حدة (التحجر). ولكن لا يزال هناك مؤسسة اجتماعية واحدة تتأثر بالتقليد المسيحي إلى حد هائل أقصد بذلك مؤسسة الزواج "هناك سؤالان يجب أن يطرحا بخصوص أي نظام زواج؛ أولاً كيف يؤثر في نمو وخُلق الرجل والمرأة ذاتهما، وثانياً ما هو تأثيره في إنجاب الأولاد وتربيتهم.

إن قوانين الزواج في إنكلترا مبنية على التوقع بأن العدد الأكبر من الزيجات سيدوم مدى الحياة، لا يمكن فسخ الزواج إلا عندما يثبت أن

واحداً من الزوجين وليس كلاهما معاً قد زنى، وعندما يكون الزوج هو الجهة المذنبة يحكم عليه أيضاً أنه مذنب لعلتي القسوة والهجر، ولا يستطيع الطلاق بالواقع وحتى عندما تكتمل هذه الشروط إلا من كان غنياً، وذلك لأن نفقات الطلاق باهظة جداً. ولا يمكن حل زواج لسبب الجنون أو الجريمة أو القسوة مهما كانت هذه الأشياء فظيعة، كما لا يمكن حله لأية علة كانت حتى ولو وافق كل من الرجل و المرأة على ذلك، لأن القانون يَعتبر الزوج والزوجة مرتبطين معاً مدى الحياة".[1]

وباختصار يمكن القول أن الزواج يخضع لشروط دينية واجتماعية، ولأن الأفراد يسعون لتحقيق هوية اجتماعية إيجابية فهم يخافون من الخروج عن قواعد السلوك المتبعة داخل المجتمع.

"إن عقوبة خرق قانون الزواج تعتمد بشكل رئيسي على الرأي العام، والزنى يُعتبر من الأمور الفاسدة التي تخالف تعاليم الكنيسة... ومن السابق للأوان أن نحكم بثقة على نتائج حرية المرأة... ولكن أجزاءً من السكان تتناقص بينما تزيد الأجزاء الأخرى وتضم الأجزاء المتناقصة الطبقة الوسطى وأصحاب الحرف، أما الأجزاء التي يتزايد عددها فهي الفقراء جداً والكسالى والسكيرون وضعفاء العقول، خاصة النساء الضعيفات العقول اللواتي هن شديدات الإخصاب. يحدث تزايد في أعداد السكان الذين لا يزالون يؤمنون بتأثير الدين الكاثوليكي، لأن الدين الكاثوليكي، يعارض تحديد العائلة. ولا تميل الفتيات النشيطات والذكيات في الطبقات المهنية، عادة إلى الزواج في سن مبكرة أو إلى

1- راسل برتراند، أسس لإعادة البناء الاجتماعي، المؤسسة الجامعية للدراسات، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٧، ص١٣٧.

إنجاب أكثر من ولد أو ولدين عندما يتزوجن، وإن انحطاط العائلة، سوف يخفض المعيار الفعلي في السكان. لا شك أبداً بأنه إذا بقي نظامنا الاقتصادي ومقاييسنا الأخلاقية على ما هي عليه الآن، فسيحدث خلال السنين القادمة تغيير سيئ وسريع في مزاج سكان كل الأمم المتحضرة وانخفاض فعلي في الأجزاء الأكثر حضارة... وسينمو بالتدريج جنس لا يتأثر بدواعي العقل، بل يؤمن بكل صلابة بأن تحديد العائلة يقود إلى نار جهنم".[1]

و يكمل رسل القول: أن التغيير يحصل بشكل كبير وحتمي بالنسبة للزواج وقد أصبح بإمكان المرأة أن تنجب الأولاد دون أن ترتبط بزواج لمدى الحياة، أو بدون زواج، وغابت صورة المرأة الفاضلة المضحية التي امتدحها أسلافنا في العصور الوسطى، هذا الترتيب الفكري قد اندثر في العالم المتحضر، ولم يعد هناك إمكانية للقبول بالخضوع القديم، وأصبح شكل الزواج الماضي مستحيلاً... إن السيطرة على الغريزة وكبح الشهوات لا يمكن أن يجد أي علاج تام إلا في شكل ديني يؤمن به الناس بصدق وحماس لدرجة يطغى بها على حياة الغريزة.

"لقد ساد الدين على الشكل القديم في الزواج، وهذا يجب أن يسود على الشكل الجديد، ولكن يجب أن يكون ديناً مبنياً على الحرية والعدالة والحب، وليس على السلطة والقانون ونار جهنم". رسل يعتبر الحب هو الذي يضفي قيمة على الزواج "فالحب كالفن والفكر وهو أحد الأشياء السامية التي تجعل حياة الإنسان جديرة بأن يحافظ عليها. ولكن الأفضل للزيجات أن تذهب في غاية أبعد من الحب. لأن حب

1- نفس المصدر ص ١٤٥/١٤٧.

شخصين لبعضهما البعض ضيق كثيراً ومنفصل عن المجتمع ولا يصلح الحب أن يكون بمفرده الغاية الرئيسية في حياة فاضلة."[1]

وخلاصة القول إن العلاقات غير الجدية مضرة، والمهم في الأمر هو أن يجد الرجال والنساء عاجلاً أم آجلاً، أفضل علاقة تتناسب مع طباعهم. المهم أن يعرف الإنسان مسبقاً ما هو الأفضل. "ولكن مع تزايد الميول التي تبرزها الحياة المتمدنة، تزداد صعوبة إيجاد الإنسان الذي يجلب السعادة. ولكن هذه السعادة لا تكون بالعلاقات الجنسية العابرة لأنها تشوش الإنسان ولا تجلب له الاكتفاء الجنسي، ويبقى امتزاج الحب والأولاد والحياة المشتركة ضمن حدود الزواج. هو أفضل العلاقات. وحين يتم فصل الحب عن الأولاد والحياة المشتركة، تتعسر الحياة، لأن العلاقات الجانبية تسبب آلاماً لا لزوم لها. وتؤدي إلى فشل الزواج فشلاً لا بد منه، ولا علاج له في أكثر الأحيان إلا بالطلاق".[2]

أما "روسو" فيرى أن الحاجات المتعددة والمختلفة عند الإنسان قد تتغير من حيث أهميتها النسبية فتصبح الحاجات التي كانت قليلة الشأن في الماضي حاجات جوهرية بمرور الوقت، ولا يعني روسو الحاجات المزاجية المتقلبة بل يشير إلى الحاجات الأساسية للنمو والتطور وخبرات الحياة ويعدد روسو أربع حاجات تضغط على الزواج :

١. ضغوط النمو الداخلي وتأثيراته، وتبزغ من خلاله وبمرور الوقت حاجات الإنسان الكامنة، ومهاراته، وقدراته كنتيجة طبيعية لعامل النضج.

1- نفس المصدر ص ١٠٠.

2- نفس المصدر ص ١٥٨.

٢. هنـاك ضـغوط التفاعـل وتـأثيرات ذلـك التفاعـل الـذي يـأتي مـن الاتصال المتبادل بين الزوج والزوجة خلال عملية التوافق الزوجي أي إنه يأتي من المسرات والإحباط ومن المتعة وخيبة الأمل ومحاولة التكيف من أجل استمرار الحياة الزوجية.

٣. ضغوط الأدوار الجماعية الجديدة وما يتبعها من ارتباطات سواء داخل الأسرة (والد، والدة) أو خارجها (مكانة جديدة في العمل أو في الجماعة) لتؤثر أيضاً في حاجات الإنسان.

٤. ضغوط الخبرات الأخرى الكبرى في الحياة مثل الصدمات المختلفة والنجاح والفشل في تحقيق الأهداف[1].

ولكن قناعة الفرد تتغير بمرور الزمن فيرضى بأشياء كان يرفضها في الماضي والمجتمعات تتعرض من حين إلى آخر لمرحلة تغير سريع للقيم والتقاليد يؤدي إلى عدم تكيف البعض مع هذا التغير المفاجئ لأن القيم عادةً لا تتغير بسهولة ولهذا يصبح في المجتمع مجموعات غير متجانسة من حيث مواكبة التغيير فيحدث تصارع بين هذه الفئات يؤدي إلى نوع من التفكك الأسري، وخاصة عندما تكون هذه الثقافات الوافدة غير مكتملة في أذهان البعض فيتبعونها بشكل عفوي دون النظر إلى خلفياتها سواء كانت إيجابية أو سلبية. وهذا يخلق صراعاً خفياً في المجتمع بين هذه الفئات، وأحياناً بين أفراد الأسرة الواحدة.

وكذلك مسألة الحرية الشخصية للشباب تتفاوت بين أسر محافظة متمسكة بالقيم والعادات والأعراف، وأسر تواكب التحرر من العادات، ونتيجة لهذا التحول تظهر أنماط أسرية جديدة ذات مضمون مختلف عن

1- الساعاتي سامية، الاختيار للزواج، دار النجاح، بيروت، ١٩٧٧ ص٢٠٨.

الواقع التقليدي السائد. يؤمن بعضها بالقيم القديمة، ويؤمن البعض الآخر بالقيم الجديدة، وهذا يؤدي بالبعض إلى الفشل في التمييز ما بين الحرية الشخصية في الاختيار، وما بين احترام قواعد السلوك الأخرى المتبعة وحرية الآخرين. وهذا يؤدي حتماً إلى التمايز بين الأفراد من حيث الاعتقاد والتصرف.

obeikan.com